زكريا وابنه يحيى عليهما السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠)

صدق الله العظيم

obeikandl.com

obeikandl.com

مات سليمان عليه السلام.. وما لبث أن ضعف خلفاؤه بعده.. كما أن بنى إسرائيل نتيجة لأطماعهم وأحقادهم ونفسيتهم المريضة.. ما لبث أن دب الخلاف بينهم من جهة، كما أنهم فى نفس الوقت ابتعدوا عن شريعة موسى عليه السلام.. وعن روحها.. ولم يكن ذلك غريباً عليهم فقد أعلنوا العصيان.. وخرجوا على روح تلك الشريعة فى حياة موسى عليه السلام نفسه.. وكان لابد لهم أن يتعرضوا للهوان والذل.. فأذاقهم الرومان كل صنوف الهوان..

وعرفوا معنى التشرد على يد «بختنصر» الذى ساقهم أسرى فى بابل.. وهناك فى الأسر حيث التشرد والضياع أخذوا يحرفون التوراة.. وأصبحت التوراة سجلا يحتوى على آمالهم ومطامعهم وأحلامهم التوسعية التى لا تعرف الحدود.. وزاد حقدهم على العالم كله.. فقد هدم بختنصر معابدهم، وأحرق التوراة وحملهم أسرى بعد أن قتل الكثير منهم.. وعندما سقطت بابل تحت ضربات الجنود الفارسية، أمر «قورش» إمبراطور فارس اليهود بأن يعودوا إلى أورشليم.. وعاد اليهود.. ولكن نفسيتهم المريضة لم يكتب لها الشفاء.

وتمضى قافلة الأيام فى ذلك الزمان.. ويأتى زكريا عليه السلام.. نبى من أنبياء الله يتعبد فى المعبد وهو من نسل نبى الله داود

عليه السلام. . وكان قد بلغ من العمر عتيا. ولم ينجب أطفالا وكانت زوجته «الياصبات» عاقراً. . وهى خالة مريم عليها السلام، فأختها هى «حنة» زوجة عمران. . وكان من آمال زكريا عليه السلام أن يرزق ولدا يقر به عيناً. . وتوجه بالدعاء إلى الله أن يحقق هذا الأمل.

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم:٢:٦].

واستجاب الله لندائه. . وبشرته الملائكة بيحيى وهو قائم يصلى فى المحراب.

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:٣٩].

وهنا اعتلت الحيرة وجه زكريا :

﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم:٨].

وكان رد الملائكة :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم:٩].

أهو فى حلم أم حقيقة . .

وسأل الله أن يجعل له آية . . وكان الرد :

﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: ١٠ ، ١١].

وفى تلك البيئة الصالحة النقية نشأ يحيى بن زكريا عليهما السلام. ويطلق عليه اسم يوحنا المعمدان. . وتعمق دراسة الشريعة الموسوية. . وهذه التربية السليمة يعبر عنها القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥].

وأخذ يحيى الذى ولد قبل عيسى عليه السلام بستة شهور. . وهو الذى عمد عيسى عليه السلام. . يدعو الناس إلى العودة إلى منابع الشريعة السليمة. . ونبذ ما هم فيه من بعد عن الله. . وكانت صورة الحياة فى هذا الزمن صورة قاتمة. فالناس قد بعدوا عن دين الله. . وكهنة اليهود يستغلون الناس. . والحكم الرومانى جاثم فوق ربوع البلاد. . وضاع الحق بين الناس. . وخرج صوت يحيى عليه السلام يدوى فى هذا المجتمع الفاسد للعودة إلى الإيمان. . وإلى اتباع شريعة موسى. . وكان يعيش فى الجبال متعبداً،

وكان غذاؤه من أوراق الشجر. . وطالب يحيى الناس بالتوبة. . وكان يعمدهم. . أى يغسلهم من ذنوبهم كبداية للتوبة فى نهر الأردن. .

وكان يصيح فى الناس باقتراب ملكوت الله. . وأن عليهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله حتى يشملهم برحمته. . لأنه لا يبقى للإنسان إلا العمل الصالح. . ولن يشفع لبنى إسرائيل أنهم أحفاد إبراهيم عليه السلام. . ولكن لابد أن يعملوا صالح الأعمال. . وفى هذا يقول لنا إنجيل لوقا مادعا إليه يحيى عليه السلام:

« وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليتعمدوا منه : يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى. فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا، لأنى أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تضع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار »

وانتشرت دعوة يحيى عليه السلام. .

وكان يحكم فلسطين «هيرودس» من قبل الرومان. . وكان متزوجاً من ابنة أحد ملوك العرب واسمه «إرتياس». . إلا أنه كان ملكا ماجنا يعيش للخمر وبالخمر. . محبا للنزوات. . عاشقاً للهوى. . مغرماً بالنساء. . وعشق هذا الملك زوجة أخيه «فيلبس» وكان اسمها «هيروديا»، وهام حباً فى نفس الوقت بابنة أخيه

«سالومى» أى عشق الأم وابنتها. .وكان ذلك مخالفاً للشريعة الموسوية. . وأعلن يحيى أن ما فعله هيرودس جريمة. . وانتشر بين الناس رأى يحيى فى الملك. .وعز على هيروديا أن يشهر بها وقررت أن تتخلص من يحيى بالقتل بأن توغر صدر الملك ضده. .

ولما كانت تعلم أن هيرودس يهيم حباً بابنتها سالومى فقد طلبت من سالومى أن ترقص أمام الملك رقصاتها الخليعة. .

وأخذت سالومى ترقص وهى تخلع ملابسها الشفافة. . بينما كانت تلعب الخمر برأس الملك. . والنزوة تسيطر عليه. .وأخذت سالومى تتمنع عليه. . وأخيراً طلبت منه أن يأتى لها برأس يحيى. . وجاءوا بالرأس فى طبق من الذهب. .

وكان يحيى فى السجن. . فقد سجنه الملك قبل ذلك ثم أمر بقتله بعد إغراء سالومى. . وفى هذا يقول إنجيل مرقص:

«لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه فى السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه إذ كان قد تزوج بها لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر».

وسمع الملك بعد أن تمت هذه الجريمة نداء من يوحنا المعمدان:

« لا يحل لك أن تأخذ امرأة أخيك».

وقد حدث عقب هذه الجريمة أن ساد الوجوم وجوه الناس. .

وأوشكت أن تقوم فتنة كبرى.. وفى هذا الجو أرسلت «هيروديا» بعض الجنود فقتلوا زكريا عليه السلام فى المعبد أيضاً !

ويحدثنا التاريخ فيقول أن «ارتياس» الملك العربى قد غضب لما حدث لابنته وزواج هيرودس عليها فهاجمه بجنود من العرب.. وهزمهم وفر هيرودس وهيروديا إلى جنوب فرنسا.. أما سالومى فقد اختلفت حولها الآراء.. بين القول بأنها انتحرت والقول بأنها أسرت.. والقول بأنها أصيبت بالجنون.. المهم أن الله عاقب الذين تسببوا فى قتل يحيى وزكريا.. ولعذاب الآخرة أشد وأنكى.

وكانت دعوة عيسى عليه السلام امتداداً لدعوة يحيى عليه السلام.

وصدق الله العظيم حيث قال:

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم:١٢-١٥].

لقد بشر يحيى بعيسى عليه السلام وكان يقول: «أنا أعمدكم بماء التوبة، ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه، هو سيعمدكم، بالروح القدس ونار» [إنجيل متى].

* * *